

شعر كشاجم

من خصائص العصر الذي عاش فيه أبو الفتح كشاجم ان الشعر انبسط فيه آفاه فجارى الحياة في تلك الأيام و كان له مجال في أكثر أمورها ، لقد تنوعت موضوعاته حتى كاد الشعراء يسفون فيها ، ومن طالع يتيمة الدهر للشمالي عرف هذا الميدان الواسع الذي جال الشعر فيه ، لقد حلق في السماء فناجى سحابها وقوس قزحها وبرقها ورعداها ثم هبط الأرض فتغنى بربيعها وبما يشتمل عليه هذا الربيع من منشور وريحان وورد ، وتغنى بشتائها وبما يجره هذا الشتاء من شدة البرد ومن الثلج أو بما يستلزمه من كانون النار ومن الشمع ، ثم رافق الحيوان ، سواء أكان هذا الحيوان ديبكاً أم كان برغوثاً أم كان زنبوراً ، ثم دخل المطابخ فظهرت عليه روائح الفالودج والحل المشوي والجدى ، ثم شهد ليالي اللهب ، فأسمعنا أصوات العود والطبل ، وأرانا رقص الرقاصين ، ثم خالط الناس في مجتمعاتهم فلم يبرع طبيب إلا كان المعرب عن براعته ، ولم يحدق مزين إلا كان المفصح عن حذقه ، ثم حضر ملاعب القوم فصور لنا شطرنجهم ونردهم ، وإذا شئت ان أحصي الآفاق التي تمكّن فيها امتدّ بي نفس الكلام ، وكان في بعض الأحيان يترك الحشمة ويطحها ، فينطلق انطلاقاً مجرداً ، يسمي الأشياء بأسمائها ، ويصفها بصفاتنا ، وهذا ما نسميه في عصرنا خروجاً على الأدب وعلى الذوق .

فلم يكن لأبي الفتح كشاجم مندوحة عن مجازاة العصر الذي عاش فيه فذهب مذاهب شعراء ذلك العصر في وصف ما وصفوه فأفحم شعره في موضوعات شتى ، فتارةً كان يخرج من هذا الشعر صوت معزفة أو عود أو عوادة أو طنبور ، وتارةً كان يظهر عليه طعم القطايف ودهن اللوز والبطينخ والسفرجل والنارنج والدجاج ، وحيناً كان هذا الشعر صورة بركار أو مسطرة أو محبرة أو سكين أو أقلام أو مقلّة ، وحيناً كان صورة الطبيعة في أنهارها ونخيلها ، وغيثها وثلجها وسحابها ، ولقد نشاهد في هذا الشعر دموع الحزن ودموع الحب .

هذا يسير من الفنون التي خاض فيها كشاجم ، ولكن الكلام على هذه الفنون لا يتيسر لي استيعابه في هذا المقال الوجيز ، فلنتخبط نماذج من شعره ولنلم بها إلاماً .
 بكى كشاجم على أمه وعلى أبيه ، ووصف نجابة ولده ، وهذه مواطن تظهر فيها عاطفة الشاعر ، وإذا لم تظهر في مثل هذه المواطن فأين يكون ظهورها ؟ قال في رثاء أمه :
 أبعد مصاب الأم آلف مضجعاً وآوي الى خفض من العيش والظل
 اني أرى ان كلمة : مصاب الأم ، تغني عن كلمات ، لقد جمعت كل الأمي وكل الحزن ، وما أظن ان في الدنيا مصاباً يعادل مصاب الأم . وقال في رثاء أبيه :
 وددتُ اني للعنا يا كنت يوماً بذلك
 وددتُ لو يجسدي كنت احتملتُ علكُ
 فهذه لمحة صادقة ، خالصة ، ليس فيها أثر من آثار الكلفة والرياء .
 وقال في نجابة ولده

نفسي الفداء لمن اذا جرح الأمي قلمي أسوتُ به جروح اسائي
 وجاء في خاتمة هذه الأبيات ما يلي
 واذا يجن الليل بات مسامري ومجاوري وممثلاً بإزائي
 فأبيت أدني مهجتي من مهجتي وأضمُّ أحشائي الى أحشائي
 واذا علنا ان الولد فلذة كبد أبيه ، قدرنا صدق العاطفة في البيت الأخير ورقة هذه العاطفة حق قدرهما .

ولكن لا بد لي من الإشارة الى ان هذه المواضع التي ظهزت فيها رقة كشاجم وعاطفته قليلة ، فان قصائده الثلاث التي أومأت اليها لا يجد القاري في كل واحدة منها على قلة أبياتها إلا بيتاً او بيتين بدلان على روح كشاجم .
 هذا قليل من دموع حزنه ، فلنشهد قليلاً من دموع حبه . قال في أبيات يصف فيها معشوقته :
 تهوى مناجاتها نفسي ويقنمها بعضُ العناق وبعضُ اللثم بكفيها
 ولا أهمّ بشيء غير ذلك بلى أستغفر الله ! مصّ الريق من فيها !
 فالرقة في حب كشاجم مثل الرقة في حزنه ، لأن القلب الذي يتفجر منه صدق العاطفة واحد ، واظن أن أبا الفتح كان يشعر برقته .

• (٢) •

غصني نضير وأخلاقي محببة الى القيان رقيقات حواشيها!

* * *

أفكان كشاجم مصقول الخيال كما كان مصقول العاطفة ، لقد تنفى بالطبيعة
فقال في وصف سحابة :

مريضة تشكو إلى عوادها بياضها قد ضاع في سوادها
تكاد لولا الماء في مزادها تجرقها البروق في اتقادها
لها على الروضة في بعادها تعطف الأم على أولادها

لا شك في ان الشاعر اذا لم يجعل الطبيعة جسماً حياً له حسه وله شعوره كانت
الطبيعة في شعره باردة جامدة ، اما كشاجم فقد نفخ في بعض شعره فيها نوعاً من الحياة .
وآخر ما أحب الإشارة اليه في هذا المقال وصف كشاجم ، هذا الوصف
الذي يستوجب الدقة قبل كل شيء ، ومن الغريب ان يقحم كشاجم شعره في
وصف أصعب الأمور كالبركار الذي قال فيه .

ملتئم الشفرتين معتدل ماشين من جانب ولا عيبا
شخصان في شكل واحدٍ قدراً وركبا بالعقول تركيا
اوثق مساره وغيب عن نواظر الناقدين تغييبا
فعين من يجتليه تحسبه في قالب الاعتدال مصبوبا

* * *

لواه ما صح شكل دائرة ولا وجدنا الحساب محسوبا

إنا نشاهد في هذه الأبيات قبل كل شيء دقة الوصف ، وقد اختار كشاجم في وصفه
الألفاظ المناسبة للموصوف ، ولا شك في ان هذه الدقة لا تنهياً لكل واحد من الشعراء .

* * *

والخلاصة اذا خرج الإنسان من شعر كشاجم بصورة من الصور فانه يخرج
من بعض هذا الشعر ، لانه كله ، بصورة تمثل رقة قلب كشاجم وخفة روحه ، ولهذا
قالوا قديماً : لطائف كشاجم ، واليك دليلاً على خفة هذه الروح وهو من قوله في مصر :
بيننا أسامي رئيساً في رئاسته إذ رحت أحسب في الحانات خمارا
فهو في النهار ينافس الرؤساء في رئاستهم وفي الليل ينافس الخمارين في حاناتهم !

سفيان هبري